الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

مولد الرّحمة

تجسيد الخلق العظيم في كلّ لحظة

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في كلّ عام تأتي ذكرى المولد النبويّ الشريف لتكون احتفالاً للأمة الإسلاميّة واحتفاءً بانبثاق نورٍ غيّر مسار التاريخ، وأرسى قيماً إنسانيّةً تجسّدت في شخصيّة النبيّ محمد ﷺ، فكان الاحتفاء هاهنا تجديداً للعهد مع هذه القيم العظيمة، فهو ليس مناسبة للزينة والغناء، بل هو محطّة للتوقّف والمراجعة والتساؤل:

إلى أيّ درجة نتمثّل هذه القيم في حياتنا؟ كيف نتعامل مع الآخرين ونخدم مجتمعنا؟

إنه وقتٌ لنسأل أنفسنا:

هل نحن رحماء كالنبيّ ﷺ الذي أرسله اللّٰه {رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}؟ هل نصدق في حديثنا كصدقه؟ هل نعدل في حكمنا كعدله؟

فمولد النبيّ ﷺ لم يكن مجرّد حدثٍ عابر، بل كان بدايةً لعهد جديد، قائم على الرحمة والخلق الكريم، حيث كانت دعوة النبي ﷺ في أساسها بناءً للإنسان وتكريماً له، من خلال منظومة أخلاقيّة متكاملة، فقد كانت صفاته أفعالاً حية تُمارس في كلّ لحظة، وفي زمننا الذي تتسارع فيه وتيرة الحياة، وتتعقّد فيه العلاقات الإنسانيّة، وتزداد المسافات بين القلوب رغم قرب الأجساد، يأتي القرآن الكريم ليرسم لنا معالم الطريق نحو حياة أكثر نوراً وسكينة، ففي آية واحدة، خالدة في ذاكرة التاريخ، يلخّص اللّٰه عزّ وجلّ سرّ عظمة النبيّ محمد ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4).

فهذه الآية ليست مجرّد ثناء إلهيّ على شخص النبيّ الكريم، بل هي دعوة عمليّة لكلّ مسلم أنْ يجعل من الخلق العظيم منهج حياة، لا مجرّد شعار يردّده باللسان، فهنا خارطة طريق نحو مجتمع أكثر رحمة وعدلاً، ونحو أسرة أكثر دفئاً ومحبة، ونحو نفس أكثر طمأنينة وسلاماً.

ففي الرحمة، كان ﷺ تجسيداً حيّاً لقوله تعالى: ﴿فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159)، فلم تكن رحمته محصورة في دائرة ضيّقة، بل كانت تشمل الطفل الذي يلاعبه، والمريض الذي يعوده، والخادم الذي يكرمه، بل حتى الحيوان الذي يرحمه، فهكذا هو الخلق العظيم؛ رحمة تسع الجميع، ولين يذيب أقسى القلوب.

وفي عالمنا اليوم، حيث تسود أحياناً قسوة التّعاملات وجفاف المشاعر، نحتاج إلى إعادة إحياء هذا البعد الرحيم في شخصياتنا، فالزوج الذي يستقبل زوجته بابتسامة رغم تعب اليوم، والأب الذي يصبر على أسئلة طفله اللامتناهية، والمدير الذي يتفهّم ظروف موظّفيه، والطبيب الذي يستمع لآلام مرضاه، كلّ هؤلاء يجسّدون الخلق العظيم في صورته العمليّة، فالرحمة في التّعامل ليست ضعفاً، بل قوّة حقيقيّة تبني الجسور بدلاً من هدمها، وتشفي الجراح بدلاً من تعميقها، فعندما نتعامل مع الخادمة في البيت برحمة، أو مع عامل النظافة في الشارع باحترام وكرامة، فإنّنا نحيي سنّة النبيّ الكريم ونقترب من خلقه العظيم.

وفي الصبر على الإساءة، كان في الرسول ﷺ وصبره على الإساءة تجسيد لقمّة النضج الروحيّ، ففي رحلته الشاقة إلى الطائف، تعرّض النبيّ ﷺ لأبشع أنواع الإذلال والأذى، فرُجم بالحجارة حتى سال الدّم من قدميه الشريفتين، وسُبّ وشُتم بأقذع الألفاظ، فلم تكن استجابته دعوة بالهلاك، بل دعوة بالهداية: "اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ"، فهذا الموقف يكشف لنا عن سرّ الخلق العظيم؛ ألا وهو القدرة على تحويل الإساءة إلى إحسان، والألم إلى دعاء، والغضب إلى رحمة، فلم يكن الصبر عند النبيّ مجرّد كبت للمشاعر، بل كان تساميّاً روحيّاً يحوّل الشر إلى خير.

فكم من المرّات نواجه فيها إساءات في حياتنا اليومية! وتتمثّل هذه الإساءات في الكلمة الجارحة من الزوج أو الزوجة، أو السلوك المؤذي من الزميل في العمل، أو عدم التقدير من الأبناء، أو الظلم من المدير ، كلّ هذه مواقف تختبر صبرنا وتكشف عن حقيقة أخلاقنا، فالخلق العظيم يعلّمنا أنْ نتعامل مع هذه المواقف بروح مختلفة، فبدلاً من ردّ الإساءة بمثلها، نسعى لفهم أسبابها، وبدلاً من الانتقام، نختار العفو، وبدلاً من كسر العلاقات، نعمل على إصلاحها، وهذا لا يعني أنْ نكون ساذجين أو ضعفاء، بل أنْ نكون أقوياء بما يكفي لكسر دورة الشر والعنف.

وفي العدل والإنصاف، فإنّ في خلق رسولنا الكريم ﷺ ما يعكس تمثّل ميزان الحياة المستقيمة بهما، فقد كان النبيّ ﷺ أعدل الناس وأنصفهم، فلم يحابِّ أحداً على حساب أحد، ولم تأخذه في الحقّ لومة لائم، فعندما سرقت المرأة المخزوميّة، جاء الناس يشفعون لها عنده لأنها من قبيلة شريفة، فقال قولته الخالدة: " أيّها الناس، إنّما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيّم اللّٰه، لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"، فهذا هو العدل في أسمى صوره، فلا محاباة لقريب، ولا ظلم لبعيد، ولا تمييز بين غني وفقير، أو قوي وضعيف، فالعدل عند النبيّ كان مبدأً ثابتاً لا يتزعزع أمام المصالح أو الضغوط.

وفي عصرنا الحاضر، نحتاج إلى إحياء هذا المعنى العميق للعدل، فالأب الذي يعدل بين أبنائه في العطاء والمعاملة، والمدير الذي يوزّع المهام والفرص بإنصاف، والحاكم الذي يطبّق القانون على الجميع، والقاضي الذي لا يتأثر بالوساطات، كلّ هؤلاء يحيون سنّة العدل النبويّ، فالعدل ليس مجرّد التوزيع المتساوي للأشياء، بل هو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، فالطفل المريض يحتاج عناية أكثر من الطفل السليم، والموظّف المجتهد يستحق تقديراً أكثر من المتكاسل، والفقير المحتاج له حقّ في مال الغنيّ، فالعدل الحقيقيّ هو ما يراعي الظروف والحاجات، ولا يكتفي بالمظاهر الخارجية.

وفي التّواضع، فقد تجلّت العظمة لدى رسولنا الكريم ببساطته، فعلى الرغم من أنّ النبيّ ﷺ كان قائد أمة وخاتم المرسلين، إلاّ أنّه لم يتكبّر قطّ أو يتعالى على الناس، فقد كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويخدم نفسه في بيته، فيغسل ثوبه، ويرقع نعله، ويحلب شاته، ويساعد في أعمال البيت، وعندما كان يدخل على أصحابه، لم يكن أحد يميّزه من بينهم إلا من يعرفه، فقد كان كواحد منهم في جلسته وبساطته، فلم يطلب معاملة خاصة، ولم يسع وراء المظاهر الفارغة، فقد كان عظيماً في تواضعه، قوياً في بساطته.

وفي عصرنا الحالي، سيطرت ثقافة المظاهر والاستعراض وقيس الناس بالسيارات والبيوت والملابس الفارهة، فبتنا بحاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى إحياء روح التواضع النبويّ، فالتواضع الحقيقيّ لا يعني التقليل من الذات أو عدم تقدير الإنجازات، بل يعني عدم الغرور والتكبّر على الآخرين، فهو أنْ يتعامل الطبيب المختصّ مع المريض البسيط بنفس الاحترام الذي يتعامل به مع زميله، وأنْ يجلس المدير الناجح مع عامل النظافة يسأل عن أحواله وأحوال أسرته.

وفي الصدق والأمانة، يتجلّى لدى الرسول ﷺ هذا الخلق الذي يشكّل أساس الثّقة المجتمعيّة، فقبل أنْ يبعث النبيّ ﷺ رسولاً، كان معروفاً بين قومه بالصّادق الأمين، فلم يكذب قطّ، ولم يخن أمانة أبداً، فحتّى أعداؤه، الذين كفروا برسالته، كانوا يأتمنونه على أموالهم وأسرارهم لأنّهم يعلمون صدقه وأمانته، فهذا الخلق العظيم لم يتغيّر بعد البعثة، بل ازداد وضوحاً وقوّة، فقد كان صادقاً في كلامه، أميناً في تعامله، وفياً بوعوده، لم تغيّره السلطة، ولم تفسده القوّة، ولم تؤثّر عليه المغريات.

وفي عالمنا المعاصر، حيث تتزايد أزمات الثقة بين الأفراد والمؤسّسات، يصبح الصّدق والأمانة أكثر قيمة من الذهب، فالتاجر الذي يصدق في بيعه وشرائه يبني سمعة طيبة تدوم أجيالاً، والموظف الأمين الذي لا يستغلّ منصبه يكسب احترام الجميع، والطالب الذي لا يغشّ في امتحانه يبني شخصيّة قويّة تفيده طوال حياته، فالصدق والأمانة ليسا مجرّد قيم أخلاقيّة مجرّدة، بل هما أساس بناء مجتمع سليم ومتماسك، فعندما يثق الناس في بعضهم البعض، تزدهر التجارة، وتنمو الاستثمارات، وتقوى العلاقات الاجتماعيّة، وعندما تفقد الثقة، ينهار كلّ شيء.

وفي الكرم والسّخاء، كان الرسول ﷺ يضرب مثلاً للعطاء بلا حدود، فها هو أنس بن مالك رضي اللّٰه عنه يصف كرم النبيّ ﷺ، فيقول: "ما سُئل رسول اللّٰه على الإسلام شيئاً إلاّ أعطاه"، فلم يكن كرمه مشروطاً بالاستطاعة الماليّة، بل كان نابعاً من كرم النفس وسخاء الطبع، ففي إحدى المرات، جاءه رجل يطلب منه شيئاً، فلم يجد النبيّ ما يعطيه، فاستدان وأعطاه، وفي مرة أخرى، أعطى رجلاً غنماً بين جبلين، فرجع الرجل إلى قومه يقول: "يا قوم أسلموا، فإنّ محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة".

وفي عصرنا الذي تسيطر عليه النّزعة الماديّة، وحيث يكنز الكثيرون الأموال ويبخلون بها على أنفسهم قبل غيرهم، نحتاج إلى إعادة اكتشاف معنى الكرم الحقيقيّ، فالكرم ليس مجرّد إعطاء الفائض، بل هو الإيثار والعطاء من القليل، فهو الأم التي تعطي لقمتها لطفلها الجائع، والأب الذي يحرم نفسه من شيء ليشتري لأبنائه ما يحتاجونه، والصديق الذي يقدّم وقته وجهده لمساعدة صديق في ضائقة.

وفي الرفق، تكلّم الرسول ﷺ بلغة القلوب النبيلة، فكان في رفقه يشمل كلّ شيء، فكان رفيقاً بالإنسان والحيوان، رفيقاً بالقويّ والضعيف، رفيقاً بالمؤمن وغير المؤمن، فها هو يقول عليه الصلاة والسلام: "إنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"، فقد روي أنّ امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وفي المقابل، غُفر لرجل سقى كلباً عَطِشاً ، فهذا الرّفق بالحيوان جزء من الخلق العظيم الذي يشمل الخلق كلّهم.

وفي حياتنا اليوميّة، نحتاج إلى ممارسة الرفق في تعاملاتنا كلّها، فالرفق مع الطفل الذي يتعلّم فيخطئ، والرفق مع الزوجة المتعبة، والرفق مع الوالدين المسنين، والرفق مع الطلبة في التعليم، والرفق مع المرضى في العلاج، فالرفق لا يعني الضعف أو عدم الحزم، بل يعني اختيار الطريقة الأنسب والأرفق في التعامل مع المواقف المختلفة، فهو الحكمة في اختيار الوقت المناسب والكلمة المناسبة والأسلوب المناسب.

وفي طريق التسامح والعفو، كان للرّسول ﷺ خطوات ثابتة في طريق هذا الشفاء الروحي، الذي عكس تحوّل انتصار القوة إلى انتصار الروح، فها هو ذا يوم فتح مكة، يقف ﷺ أمام أهل مكّة الذين آذوه وأخرجوه من داره، والذين حاربوه سنوات طويلة، فقد كان بإمكانه أنْ ينتقم منهم، وكان له كلّ الحقّ في ذلك، لكنّه اختار طريقاً آخر، طريق العفو والتسامح، ولكنّه قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فهذا الموقف العظيم حوّل الأعداء إلى أصدقاء، والخصوم إلى أتباع، فلم يكن انتصار سيف، بل انتصار روح، ولم يكن غلبة قوّة، بل غلبة أخلاق.

واليوم في عالمنا المليء بالخلافات والانقسامات، على مستوى الأسر والمجتمعات والدول، نحتاج أكثر من أيّ وقت مضى إلى روح التسامح والعفو، فالتسامح لا يعني التنازل عن الحقوق أو السماح للظالم بالاستمرار في ظلمه، بل يعني كسر دورة الحقد والانتقام التي تدمر القلوب والعلاقات، فهو القدرة على الصفح عند المقدرة، والعفو عندما تسمح الظروف بذلك.

وفي بيته، كان النبيّ ﷺ مدرسة عمليّة للأخلاق الفاضلة، وفي تعامله مع زوجاته، كان مثالاً للزوج المحبّ الرحيم، فكان يساعدهنّ في أعمال البيت، ويصبر على ما قد يصدر منهنّ من كلام أو تصرّف، ويعاملهنّ بالعدل والإحسان، فقد وصفت السيدة عائشة رضي اللّٰه عنها أخلاق النبي في البيت فقالت: " كان ألين الناس وأكرم الناس"، وعندما سُئلت عن خلقه قالت: "كان خلقه القرآن".

وها نحن اليوم في بيوتنا، نعايش الاختبار الحقيقيّ لأخلاقنا، إذ إنّ الإنسان قد يتصنّع أمام الناس، لكنّه يظهر على حقيقته في بيته، فالخلق العظيم يبدأ من البيت؛ من الرفق بالزوجة، والحنان على الأطفال، والبرّ بالوالدين، والعدل بين الأبناء، فعندما يرى الأطفال الآباء والأمّهات يتعاملون بالرحمة والتسامح والصدق، سينشؤون على هذه الأخلاق. وعندما يشاهدون الغضب والعنف والكذب، ستترسخ في نفوسهم هذه السلوكيات السلبية.

وفي أخلاق المهنة، كان الرسول ﷺ يقول: " إنّ اللّٰه يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يتقنه"، فلم يفصل الإسلام بين الأخلاق الشخصيّة والأخلاق المهنيّة، فالمسلم مطالب بأنْ يكون صادقاً أميناً في عمله كما هو صادق أمين في عبادته، فالتاجر المسلم لا يغشّ في بضاعته، والطبيب المسلم يخلص في علاج مرضاه، والمعلم المسلم يجتهد في تعليم طلبته، فالإتقان في العمل جزء من الخلق العظيم، والإخلاص في الأداء عبادة وأخلاق.

والمجتمع الفاضل لا يُبنى بالقوانين والأنظمة وحدها، بل بالأخلاق الفاضلة التي يحملها أفراده، فعندما يتحلّى كلّ فرد في المجتمع بالصدق والأمانة والرحمة والعدل، يصبح المجتمع كلّه واحة من الأمان والسلام، وهذا لا يعني أنْ نتجاهل دور المؤسّسات والقوانين، لكن يعني أنّ الأساس الحقيقيّ للمجتمع السليم هو الضمير الحيّ والأخلاق الفاضلة.

وبعد، فقد كان النبيّ ﷺ مربياً عظيماً يعرف كيف ينمّي الأخلاق الفاضلة في نفوس أصحابه، فكان يعلّم بالقدوة والممارسة، إذ إنّه كان يقول: "إنّما بعثت لأتممّ مكارم الأخلاق"، وفي عصرنا الحالي، تواجه الأجيال الجديدة تحدّيات كبيرة، تدفعنا لإيجاد منهج تربوي واضح لبناء الأخلاق، فالتربية الأخلاقية تبدأ بالقدوة الحسنة والأخلاق تُنقل بالممارسة والتطبيق، فهي ليست مجرّد التزامات دينية أو اجتماعية، بل هي طريق للسعادة الحقيقية والسلام الداخليّ.

وها نحن اليوم في بيوتنا، نعايش الاختبار الحقيقيّ لأخلاقنا، إذ إنّ الإنسان قد يتصنّع أمام الناس، لكنّه يظهر على حقيقته في بيته، فالخلق العظيم يبدأ من البيت؛ من الرفق بالزوجة، والحنان على الأطفال، والبرّ بالوالدين، والعدل بين الأبناء، فعندما يرى الأطفال الآباء والأمّهات يتعاملون بالرحمة والتسامح والصدق، سينشؤون على هذه الأخلاق. وعندما يشاهدون الغضب والعنف والكذب، ستترسخ في نفوسهم هذه السلوكيات السلبية.

وفي أخلاق المهنة، كان الرسول ﷺ يقول: " إنّ اللّٰه يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يتقنه"، فلم يفصل الإسلام بين الأخلاق الشخصيّة والأخلاق المهنيّة، فالمسلم مطالب بأنْ يكون صادقاً أميناً في عمله كما هو صادق أمين في عبادته، فالتاجر المسلم لا يغشّ في بضاعته، والطبيب المسلم يخلص في علاج مرضاه، والمعلم المسلم يجتهد في تعليم طلبته، فالإتقان في العمل جزء من الخلق العظيم، والإخلاص في الأداء عبادة وأخلاق.

والمجتمع الفاضل لا يُبنى بالقوانين والأنظمة وحدها، بل بالأخلاق الفاضلة التي يحملها أفراده، فعندما يتحلّى كلّ فرد في المجتمع بالصدق والأمانة والرحمة والعدل، يصبح المجتمع كلّه واحة من الأمان والسلام، وهذا لا يعني أنْ نتجاهل دور المؤسّسات والقوانين، لكن يعني أنّ الأساس الحقيقيّ للمجتمع السليم هو الضمير الحيّ والأخلاق الفاضلة.

وبعد، فقد كان النبيّ ﷺ مربياً عظيماً يعرف كيف ينمّي الأخلاق الفاضلة في نفوس أصحابه، فكان يعلّم بالقدوة والممارسة، إذ إنّه كان يقول: "إنّما بعثت لأتممّ مكارم الأخلاق"، وفي عصرنا الحالي، تواجه الأجيال الجديدة تحدّيات كبيرة، تدفعنا لإيجاد منهج تربوي واضح لبناء الأخلاق، فالتربية الأخلاقية تبدأ بالقدوة الحسنة والأخلاق تُنقل بالممارسة والتطبيق، فهي ليست مجرّد التزامات دينية أو اجتماعية، بل هي طريق للسعادة الحقيقية والسلام الداخليّ.

والبداية من اليوم... ففي خطوة اليوم، يتجسّد إنجاز الغد...

فالطريق إلى الخلق العظيم لا يحتاج إلى ثورات كبيرة أو تغييرات جذرية مفاجئة، بل يحتاج إلى خطوات صغيرة ثابتة، والبداية بخطوة واحدة؛ فلنعمل على تطبيق نهج الرسول الكريم عندما قال ﷺ:

"لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أنْ تلقى أخاك بوجه طليق".

فليكن احتفالنا هذا العام مختلفاً، احتفاءً نجعل فيه أخلاق النبيّ برنامجاً عملياً نسير عليه، فنترجم فيها "الخلق العظيم" من كلمات نردّدها إلى أفعال نعيشها في كلّ لحظة، فإنّ أعظم تكريم لذكرى النبيّ ﷺ هو الاقتداء به، والسير على منهجه، حتى نكون حقاً أمةً تحمل مشعل الرحمة والأخلاق إلى العالم أجمع، تجسيداً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: 21).